المقدمة

هذا الكتاب الذى نقدمه للقراء الأعزاء هو الحلقة الثالثة من مشروع الدراسات القرآنية الذى عكفت عليه منذ عدة عقود وأصدرت كتابين سابقين للتمهيد وهما المصطلح القانونى فى القرآن الكريم الصادر فى القاهرة عام ٢٠٠٣ والفكر السياسى والقانونى فى القرآن الكريم الصادر فى القاهرة أيضا عام ٢٠٠٩ . وبذلك يكون هذا الكتاب خاتمة هذا المشروع فى شقه التأصيلى آملاً أن نذيل المشروع ببحوث نوعية تثرى هذا الباب الجديد من أبواب الدراسات القرآنية.

فى هذه المقدمة نريد أن نلقى الضوء على عدد من المسائل الاساسية التى تساعد القارئ والباحث على الدراسة الجادة وعلى إثراء هذا الباب الجديد الذى وفقنا الله إليه تقربا إليه وخدمة لكتابه الكريم.

المسألة الأولى دوافع مشروع الدراسات القانونية القرآنية :

١- أن علوم القرآن أصبحت فى نظرنا كل علم يظهر عظمة هذا الكتاب الكريم وبذلك نضيف إلى علم الأسبقين علوم العصر الذى نعيش فيه وسوف تأتى أجيال أخرى قد ترى غير ما نرى وهذه سنة التطور التى تتحول ويبقى الله وكتابه وسننه ثابتة مستقرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

openkan.com

٢- أن هذا المشروع هو دعوة إلى كل المتخصصين فى كل الفروع والعلوم لإنزال علمهم على كتاب الله، وعلى سبيل المثال تقدم الطب تقدما مشهودا وكذلك العلوم الرقمية والتكنولوجية وخلق الإنسان والطبيعة وكلها علوم تجد وعاءا صالحا فى القرآن الكريم مصداقا لقوله تعالى ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ (فصلت ٥٣)

٣- مادام القرآن الكريم كلام الله وتعليماته إلى البشر وآخر رسالة السماء إلى الأرض، فإن الاجتهاد فى علوم القرآن أصبح واجبا بعد انقطاع النبوة. وكان محمد ﷺ هو الذى نزل عليه الكتاب مصدقا لما نزل من كتب سابقة ومكرماً لرسولنا الكريم وخاصاً له بالرعاية والاهتمام. فنحن نرتكز على تراث متين من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

٤- أن القرآن ودعوته يعتمد على العقل وأن العاقل هو الذى يكسب الدنيا والآخرة فلا تناقض بينهما ولا تفاضل فلا آخرة بلادنيا ولادنيا بلا آخرة ومن هنا وضعت قواعد الحساب والمساءلة بناءاً على العقل وهو وحده الذى مَيز الله به الإنسان على سائر خلقه فصار العقل مناط التمييز والطريق إلى معرفة الله. واقترن العقل بالحرية فى القرآن لأن الله يحب أن يأتى إليه العبد بوعى وعقل أى عاقلا حراً مادام الإنسان قد اختار حرية أن يؤمن أو يكفر على خلاف بقية المخلوقات التى قررت أن تعبد الله عبادة تسخير لا تخيير، ولذلك اختار الله الإنسان خليفةً فى الأرض وسخر له سائر مخلوقاته مادام قد اختار أن يعبد الله عبادة تخيير فوهبه الله التمييز بين الإيمان والكفر. وبذلك نبدد تماماً مقولة بعض المستشرقين من أن الدين يتناقض مع العقل وقد أكدنا فى هذه الدراسة أن الدين واتباعه هو قمة

احترام العقل وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله ﴿ **وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ** ﴾

٥- فيما يتعلق بالإعجاز القانوني، فقد سجل الباحثون الكثير من صور الإعجاز فى القرآن الكريم وصدرت مئات الأبحاث والكتب التى تعالج هذه الصور، وخاصة الإعجاز البيانى والإعجاز العلمى وغيرها من صور الإعجاز المعروفة. ذلك أن القرآن الكريم لغة وحكم وهما من عند الله ولذلك اتجهت بعض الدراسات إلى أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ومن الطبيعى أن تكون كلمة الله وبيانه هى العليا وأن يكون حكمه نافذا على كل خلقه. فالإعجاز ظاهر عند المقارنة بين قدرة الله واللامحدودة وقدرات الإنسان المحدودة وقدرة الإنسان، فالإعجاز هنا واضح لتواضع قدرات الإنسان أمام قدرات خالقه. وهذا الاتجاه يلمز من طرف خفي بأن ضعف الإنسان الظاهر قياسا علي قدرة الخالق تُعجِزُ الإنسان أمام الخالق أي أن عجز الإنسان هو السبب في إعجاز القران وليس قدرة الخالق، تعالي الله عما يحدثون.

٦- ونقول لهم لماذا لاتؤمنون بأن الله هو الخالق، وقدرته تفوق طبعا قدرة المخلوق، وهذا سبب إضافي لاقتران العجز عند البشر والإعجاز في القرآن بالخضوع والانكسار والبحث في أوجه الإعجاز. هذا الاتجاه في الدراسات لم يخل من غمز فى عظمة الإعجاز وإنما كرس ضعف العجز البشري، فالعجز أمام القدرة يؤدى إلى الإعجاز مادام الإنسان تُعجِزُه قدرة الله عليه. فلا مشابهة ولا مقارنة بين لغة الله ولغة البشر وبين أحكام الله وأحكام البشر ومادام البشر قد خلقوا على الفطرة فإن جيناتهم جاهزة

لاستقبال أحكام الله واستشعار عظمة كتابه، حتى دون الإلحاح على دخولهم فى الإيمان على مر العصور.

٧- أن الغرب وجامعاته تحفل الآن بمراكز وأقسام وجمعيات للدراسات الإسلامية والقرآنية بل هناك دائرة المعارف القرآنية. وأوصى الأزهر الشريف فى هذا المقام بتشكيل لجنة من المتخصصين المجيدين على الأقل للغة الإنجليزية بمراجعة المقررات الدراسية والبحثية فى هذه الجمعيات والجامعات خاصة وأنها تقوم بتدريس لغة القرآن وبيانه من جانب غير المسلمين وغير المتحدثين أصلاً باللغة العربية ومن هنا يأتى الخطأ فى فهم هذا الكتاب العظيم. ولا ندرى إن كان مقصودا أو كان اجتهادا، ولكنه فى كل الأحوال يقدم الإسلام بشكل غير صحيح ثم يترتب على ذلك أفكار وأنشطة معادية للمسلمين. وتقدم هذه الدراسات فى توصيات للحكومات الغربية، ويصبح القرار السياسى مبنيا على صورة خاطئة فى الغالب تحمل الإسلام أخطاء المسلمين والصحيح أن الإسلام حجة على دارسيه وعلى معتنقيه على السواء. ويكفي الدس الذي تقوم به الأوساط اليهودية والاستشراقية، فقد لمع اسم مارتن كريمر رئيس مركز ديان لدراسات الشرق الأوسط بسبب رسالته في إحدي الجامعات الأمريكية التي طمس فيها كل رموز التاريخ الاسلامي ثم قدم كتابا للرئيس الأمريكي حول ما يجب علي الرئيس أن يعرفه ويهدف إليه عن العالم الإسلامي (وهو تلميذ برنارد لويس ونائبه فى الجمعية الدولية لدراسات الشرق الأوسط وهى الجمعية التى انشغلت منذ عقود بالعمل على تفتيت العالم العربى).

٨- قد يظن بعض الباحثين أن الإعجاز القانونى هو نفسه الإعجاز التشريعى ورأوا أن علوم الشريعة هى فى الواقع علوم قانونية . فالقانون الإلهى تولى شرحه علماء الشريعة فما هو الفرق بين الإعجاز القانونى والإعجاز التشريعى حتى نعتبر أن القانون فى القرآن فرع جديد من الدراسات القرآنية؟

٩- من الناحية النظرية ، المقولة وجيهة تماما وكانت الفكرة دائما حاضرة فى ذهن الباحث خلال مراحل البحث فى هذا الموضوع، ولكنى، وكما سيظهر فى فصول الكتاب وجدت أن الإعجاز القانونى وإن كان يتصل بالإعجاز التشريعى ويتجاور معه فى نهاية المطاف إلا أنه يشكل رافدا مستقلا بحيث يمكن أن نقول باطمئنان أن بالقرآن إعجازا تشريعيا وإعجازاً قانونياً، فيبقى بعد ذلك أن نوضح الفروق الجوهرية بين الرافدين، وقد جمع الكتاب بينهم على أية حال.

الفارق الأول بين الإعجاز التشريعى والإعجاز القانونى هو أن الإعجاز القانونى يتطرق إلى فلسفة التشريع تماما مثل القانون وفلسفة القانون. فالقانون هو الأحكام الظاهرة ولكن فلسفة القانون هى الأرضية العميقة التى قامت عليها أحكام القانون أو هى حكمته والهدف منه ومداه ولذلك لا يمكن دراسة القانون دون أن ندرس فلسفة القانون.

الفارق الثانى هو أن الإعجاز التشريعى يتناول الأحكام الإلهية والسنة المطهرة ثم اجتهاد الفقهاء. أما الإعجاز القانونى فينظر إلى أحكام الشريعة فى بيئتها العميقة وكذلك فى بيئتها الخارجية مستفيدا من منطق الفلاسفة، ويربط

بين الحياة المعاصرة فى تجلياتها السياسية وغيرها وبين أصول الأحكام . وعلى سبيل المثال فإن علماء الشريعة قد أنزلوا عقد الزواج باعتباره من عقود المعاملات إلى مستوى التنفيذ، وعالجوا مختلف الأوضاع فى نشأة العقد واستمراره وانحلاله. ولكن دراستنا لا تتطرق إلى هذه الأوضاع فى عقد الزواج وإنما تهتم بوضع هذا العقد فى إطار نظرية العقود فى القرآن الكريم مقارناً بالمبادئ الأساسية فى العقود لكى تخلص الدراسة إلى أن عقد الزواج له طابع خاص، يكاد يخرجه من عداد نظرية العقود، كما أنه عقد بين إرادتين بشريتين ولكنه رخصة من الخالق أحاطها بعنايته مادام الله سبحانه هو الذى جعل من آياته أن خلق للإنسان من نفسه زوجا وجعل بين الزوجين مودة ورحمة وبث منهما رجالا كثيرا ونساءا. فضمان الله سبحانه لشرعية هذا العقد تحرس أيضاً حالات انحلال العقد والنسب وغيرها مما أطلقنا عليه فى الدراسة أخلاقيات القرآن مقارنة بأخلاقيات القانون.

الفارق الثالث هو أن هذه الدراسة تقدم المفاهيم فى القانون الوضعى تمهيدا لفهمها فى أحكام القرآن، ثم تقديم فلسفتها وإلقاء الضوء على أبعادها الأوسع من خلال هذه النظرة . وعلى سبيل المثال فإن علماء الشريعة يهمهم الحرية والعقل فى القرآن، إلا بقدر لزومهما لأهلية التصرف الشرعى، أما فى دراستنا فهما أساس المساءلة القانونية فى جميع النظم القانونية الوضعية .

الفارق الرابع أنه إذا كانت أحكام الشريعة محددة فإن اللفتات القانونية فى القرآن الكريم مبعثرة وتحاول هذه الدراسة أن تتعقبها أو تتعقب بعضها آملة أن تجد أجيال أخرى فى الإسهام فى إثراء هذا الاتجاه، ومثاله الوقفات القانونية

التى قدمناها فى قصتى يوسف وموسى، وهذه أمور لا علاقة لها بالشريعة الإسلامية.

مثال آخر يكون فيه الجانب الفكرى أشمل فى النظر وأوسع فى الإحاطة وهو يتعلق بعلاقة القرآن بالكتب السابقة عليه، ومعالجة مسألة العلاقة بين إسلام الأنبياء وإسلام أمة محمد. فإذا كانت الشريعة تعالج مثلا موضوع الارتداد فى الإسلام فإن دراستنا تفسر هذا المعنى على أساس أن القرآن شامل لما قبله وهو كلمة الله النهائية إلى عباده وأن محمدا هو آخر أنبياء الله إلى الأرض. ولذلك فالمؤمنون بالقرآن وبمحمد لا يجوز أن يرتدوا إلى الوراء ولكن يظل كل فى مكانه ويجمع بين الجميع أن العلاقة بين المسلم والمسيحى واليهودى وهى علاقة رأسية بينه وبين الله وليست علاقة أفقية بين عباد الله ، وأتباع الشرائع.

ونسأل الله أن ينتفع من هذا العمل الراغبون فى فهم أعمق لأحكام القرآن وأن يكون عملا خالصا لوجهه الكريم داعين الله أن يكون القرآن شفيعا لنا يوم القيامة.

السفير الدكتور عبدالله الأشعل

القاهرة مايو ٢٠١٧ – شعبان ١٤٣٨

obeikan.com